مقدمة

حينما سألت فضيلة الشيخ الشعراوى إمام أئمة عصره عن نظرته إلى أعدائه، قال: أحبابى وأعدائى كلاهما مستفيد منى. فأما أحبابى فمستفيدون منى الهدى. وأما أعدائى فمستفيدون ممن يؤجرونهم لمهاجمتى. وكلما ازداد الهجوم، ازداد حظى من ميراث النبوة. أليس العلماء ورثة الأنبياء فى تبليغ رسالتهم وفيما يلاقون من أذى وعداء؟

وهكذا نجد فضيلة الشيخ الشعراوى كما حظى بالحب فقد حظى بالعداء. والمحبوبية رزق وفضل من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى إذا أحب عبدًا طلب من ملائكته أن يحبوه وأن يضعوا له القبول فى الأرض. أما العداء فهو من نصيب الناجحين، كالشجرة المثمرة التى يلقى عليها الطوب والحجارة. وأعداء النجاح هم دائمًا الفاشلون. وكذلك أعداء المصلحين هم دائمًا المفسدون. والرسل والأنبياء هم الذين يرسلهم الله على موعد مع بلوغ الفساد غايته ومداه فى الأرض؛ لكى يقيموا المعوج، على

منهج الله.

وما أسهل محاربة المصلحين بالافتراءات والاتهامات بالكذب والسحر والجنون، وغيرها من الافتراءات التى يعلم أصحابها أنها خاوية من الحقيقة. وفى عصرنا تأخذ الاتهامات للناجحين والمصلحين والدعاة أشكالاً متقدمة تتناسب وتقدم العصر وأدواته. وكلها تصب فى باب الأكاذيب والتلفيقات، على نسق ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ .. ﴾ [النساء : ٤٣] دون إكمال بقية الآية، لتأخذ مضمونها الصحيح. وعلى هذا النسق يقرءون ما يقوله داعية كالشيخ الشعراوى قراءة تقوم على سوء النية والقصد بتلبيس الكلام بغير ما يعنيه واجتزاء ما يخدم الافتراءات؛ لهدم الرجل وقتله أدبيا ومعنويا. فقد زعموا على سبيل المثال أن الرجل قال: إنه سجد لله شاكرًا بعد هزيمة ٦٧ على الضحايا الذين ذهبوا. وما أبعد ذلك عن الحقيقة إذا عدنا إلى حديث الشعراوى الذى قال فيه: إنه سجد لله شاكرًا بعد هزيمة ٦٧؛ لأننا هزمنا ونحن فى أحضان الشيوعيين الذين كنا نستعين بهم فى قواتنا المسلحة. وعندما تخلصنا منهم واستغنينا عنهم، واعتمدنا على الله أكثر، انتصرنا فى العاشر من رمضان، ونحن فى أحضان الله، بينما انهزمنا حنيما كنا فى أحضان الملحدين.

لقد اجتزءوا من كلام الشيخ ما يخدم التهمة ويؤكد الافتراء.

وجاء سفر الشيخ الشعراوى للعلاج فى الخارج ليُتَّهمَ بأنه سلم نفسه للعلاج على أيدى غير المسلمين، وأوضح الرجل لذوى الفهم القاصر موقفه، فقال:

إن الناس جميعًا مسلمهم وغير مسلمهم وكافرهم هم عيال الله، استدعاهم إلى الوجود، وتكفَّلَ برزقهم من أسباب الله فى أرض الله. إذا ما تفاعلوا معها، تفاعلت لهم، وأعطتهم من خيرها، وهذا هو عطاء الربوبية للناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] وليس لمؤمن فى مسألة التفوق ميزة على الكافر؛ لأن الكافر إذا أخذ بأسباب التقدم انفعلت له الأسباب. والمؤمن إذا لم ينفعل بها يظل متخلفًا. ومن العجيب أن تفوق الكافر وتقدمه يعود إلينا كمستهلكين ومستفيدين، وكأنهم مسخرون لخدمتنا، وكنا نأمل أن يكون التقدم لنا نفيض به على غيرنا، ولكننا مستفيدون فى الحالتين. ولكن التقدم فى بعض الأحيان قد يكون نتيجة قصور فى الإمكانيات لا قصور فى المواهب والقدرات الإنسانية. ولذلك حينما قرر الأطباء سفرى للعلاج، وتَقرَّرَ أن يكون المشرف على علاجى طبيبًا مسيحيا، والطبيب المعالج يهوديا، ورغم أنه خبير عالمى فى جراحة المناظير، وأجرى أكثر من ألف عملية مرارة، فإنه لم يستطع، وتسلَّمَ المسئولية منه طبيب

مسلم من بلدى يعمل فى إنجلترا، واستطاع وهو المتخصص فى الجراحة العامة أن يستأصل مرارتى بالجراحة العادية.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يكون الطبيب الذى أزال أسباب الألم بأمر من الله هو طبيب مسلم ومصرى، لا يهم المكان أرضًا هنا أو هناك، فكلها أرض الله. ولا غضاضة إن كان قد قام بالعملية يهودى أو مسيحى أو مسلم؛ لأننا جميعا متصلون فى عقائدنا برب واحد، فنحن جميعًا كأهل ديانات متصلون بالله، ويجب أن ننسى خلافاتنا فى الفروع؛ لنتحد فى مواجهة الملاحدة، حتى لا يأخذوا من خلافاتنا واختلافاتنا حجة علينا بصواب كفرهم.

وأخذوا على الشيخ الشعراوى أنه أفتى بترك العلاج؛ لأن المريض على موعد مع الله، والعلاج لا يقدم ولا يؤخر. والحقيقة أن الشيخ الشعراوى لم يدعُ إلى ترك العلاج؛ لأنه يعلم ـ وقد قال بذلك فعلاً ـ أن الرسول نفسه قد أخذ بالأسباب حين أصيب بالحمى، وراح يخفض من حرارتها بالماء، والرسول ﷺ نفسه هو الذى قال: لكل داء دواء.

ويضيف فضيلته: فكيف أدعو إلى ترك الأسباب التى أمرنا الله ورسوله بأن نأخذ بها؟!

ولسنا هنا فى معرض الدفاع عن الشيخ الشعراوى؛ لأن الله ـ سبحانه ـ متكفل بالدفاع عن الذين آمنوا. أولئك الذين هداهم الله لنوره، وأفاض عليهم من علمه وبيانه. ولن تنتهى الاتهامات واجتزاء المعانى الموحية بالاتهام من أقوال الشيخ، فالحرب مستمرة، وهو ما يعتبره الشيخ الشعراوى شرفًا ووسامًا على صدره ودليلاً على نجاحه وبلوغ رسالته ودعوته إلى الله.

* * *

وحينما أعود إلى أوراقى القديمة الخاصة برسائلى إلى أصدقائى لم أجد أسعد من يوم لقائى مع فضيلة الشيخ الشعراوى، فقد كتبت فى تلك الأوراق إلى صديقى «محمد الحصرى»، أقول:

الحمد لله.. هذا أسعد يوم فى حياتى.. لقد التقيت بإمام عصره الشيخ الشعراوى.

لقد كان اللقاء به أمنية حياتى، حتى قبل أن أكون صحفيا، حينما كنت بالجامعة، وبعثت برسالة إلى الإمام الشعراوى أعبر له فيها عن حبى وتقديرى وإعجابى بأسلوبه وطريقته فى تفسير القرآن الكريم.. وإن لم يعترف هو أنه يفسر القرآن مكتفيًا بأن ما يقوله ما هو إلا خواطر يفيض الله بها عليه ساعة أن يدلى

لجمهور المسلمين بأحاديثه مما يلهمه الله به من فيوضات فكرية إيمانية تجعل المستمع إليه يعيش فى عالم روحى مع غيره من المستمعين الذين يصيحون جميعًا فى وقت واحد: «الله.. الله» معبرين عن إعجاب أسطورى، لا أعتقد أن عصرنا قد شهد مثله لرجل دين منذ عهد الأستاذ الإمام محمد عبده رائد التجديد فى الفكر الإسلامى خلال القرن الرابع عشر الهجرى، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يبعث لأمة الإسلام على رأس كل مائة سنة من يجدد إيمانها، ويبعث فيها روح الإسلام قويا نشيطًا من جديد.

ولعل الشعراوى هو ذلك الرجل الداعية المجدد على رأس المائة الخامسة عشرة لهذا القرن الهجرى الذى نعيشه.

وما أسعدنا أننا نعيش فى عصر الإمام الشعراوى، لدرجة أننى فى رسالتى إليه وأنا ما زالت طالبًا بعد فى المرحلة الجامعية قلت له: إننى أدعو الله ـ تعالى ـ أن يأخذ من أعمارنا ليطيل فى عمرك، حتى تنتهى من خواطرك الإيمانية حول سور القرآن الكريم وآياته.

وتلك هى أمنية الشيخ نفسه أن يبارك الله ـ تعالى ـ فى عمره، حتى يصل بخواطره إلى آخر آية من سورة «الناس»، ذلك لأن الشيخ الإمام يأخذ وقتًا كثيرًا حول الآية الواحدة، مما قد لا

يسعفه العمر لاستيفاء خواطره حول القرآن الكريم كله.

ولم أكن وحدى الذى ساورته هذه المخاوف، وإنما مسلمون آخرون بعثوا إليه بخطاباتهم التى يبدون فيها هذه الملاحظة. وقد رد عليهم الشيخ الشعراوى خلال إحدى حلقات خواطره المذاعة فى التليفزيون، وطمأنهم أن تكرار بعض الآيات والمعانى لحكمة مقصودة فى كتاب الله ـ تعالى ـ سيجعله يمر عليها سريعًا اعتمادًا على شرحه لها فى آيات سابقة مما يختصر الوقت؛ فنحن حريصون على استيفاء خواطر الشيخ الشعراوى حول القرآن الكريم كله لأنها ستكون ثروة تراثية للإسلام وللمسلمين على مدى العصور والأجيال.

ولا شك أن مقابلته هى أمل عظيم وأمنية كبرى، وإن كانت خواطره المذاعة حول القرآن الكريم تعوض محبيه عن مقابلته. وقد اقتربت من تحقيق أمنيتى فى مقابلة الشيخ الإمام بعد أن خطوت أولى خطواتى فى شارع الصحافة.. كان ذلك عندما كنت بمجلة «المصور».

وقد شجعنى وأطمعنى فى التعجيل بالسعى لمقابلة الإمام هو أننى بدأت حياتى الصحفية على مستوى طيب عندما أجريت أول حوار صحفى مع شيخ الكُتاب «توفيق الحكيم»، وكان ذلك بعد

حوالى ثلاثة أشهر فقط من عملى بمهنة البحث عن المتاعب، فقلت لنفسى: إذا كنت قد قابلت الحكيم شيخ الكُتاب، فهل يصعب مقابلة شيخ شيوخ الإسلام؟ فلأحاول.

ولكنى أعترف ـ لقلة الخبرة آنذاك ـ أن الأسلوب الذى اتبعته من أجل إتمام هذه المقابلة لم يكن حكيمًا، فقد كتبت رسالة إلى الشيخ أقول فيها: إن شيخ الكُتاب توفيق الحكيم قد قابلنى، وسمح لى بإجراء حوار معه رغم أننى ما زلت فى بداية حياتى الصحفية، وأرجو من فضيلتكم مقابلتى وإجراء حوار معك.

وكان توفيق الحكيم قد بدأ نشر أحاديثه الشهيرة مع الله تعالى، والتى أثارت ضجة كبرى قادها الشيخ الشعراوى نفسه، واتهم فيها الحكيم بالضلال؛ لأنه لا يتحدث مع الله ـ تعالى ـ إلا أنبياء الله ورسله، فكيف يبيح الحكيم لنفسه أن يتصور أو يتخيل حوارًا أو حديثًا مع الله. ورغم هذه الأزمة القائمة بين القطبين الكبيرين فإننى لم أحاول تغيير صيغة خطابى إلى الإمام الشعراوى. وفى الاستراحة بين الحلقتين اللتين كان يسجلهما الشيخ بمسجد سيدنا الحسين ـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه ـ سلمته الرسالة التى سلمها بدوره إلى أحد مريديه المحبين المقربين، وكما علمت بعد ذلك إن هذا الرجل كان يعمل بوزارة الأوقاف حينما كان الشعراوى وزيرًا، فلما ترك الوزارة، ترك هذا

الرجل أيضًا منصبه بالوزارة، وآثر ملازمة الشيخ الشعراوى حبا وتقديرًا.

وكانت نتيجة الرسالة معروفة مسبقًا، فقد قلت للشيخ الشعراوى بصريح العبارة إننى صديق للحكيم الذى اتهمته أنت يا شيخنا بالضلال، والمسلم الفطن هو الذى يتعلم دائمًا من أخطائه، فما كان يجب أن أربط قط بين مقابلتى لشخص بشخص آخر حتى لو بدا لى أن العلاقة بينهما طيبة، فلا أحد يدرى ما يمكن أن يكون بينهما خلف الستار، فما بالك والخصومة معلنة على رؤوس الأشهاد؟!!

ومرت شهور وراء شهور، وما زالت تراودنى فكرة المحاولة من جديد لمقابلة الشيخ الشعراوى، ولكننى كنت أقول لنفسى: لقد وضعنى الشيخ فى القائمة السوداء التى تضم المغضوب عليهم، ولكننى كنت أقول أيضًا: ولكن الشيخ والكاتب تَصالَحا، وقام الشيخ الشعراوى بزيارة توفيق الحكيم أثناء مرضه فى المستشفى، وصلى عنده داعيًا له بالشفاء، وأهداه سجادة للصلاة، وقالب طوب للتيمم.

وكان لابد من دافع قوى لمقابلة الشيخ، وقد جاء هذا الدافع بسبب من المسبب الأعلى هيأه لى بأفضل ما يكون التهيىء،

فسبحان الذى يجعل لكل شىء سببًا؛ حتى يمارس الإنسان الحركة والفعل، ولا يركن إلى الدعة والكسل والتوكل. وهذا ما تعلمته من الإمام الشعراوى فى خواطره الإيمانية، حيث قال: أى قوة فى عصا موسى تجعل البحر يتحول إلى يابس يعبر عليه كليم الله وقومه؛ نجاة من فرعون وقومه، ثم يضرب بعصاه مرة أخرى، فيعود البحر كما كان ليغرق فرعون وقومه؟! وأى قوة لمريم وهى تعانى آلام الوضع لتهز النخلة لتساقط منها عليها رطبًا جنيًا؟! وأى قوة فى قدمى إسماعيل الطفل الوليد ليضرب بهما الأرض؛ لتتفجر مياه زمزم من تحتهما؛ ليشرب وتشرب أمه، ويشرب المسلمون إلى يوم القيامة؟!

إن القضية هنا هى أن نمارس الأسباب فى كون الله، وفى النهاية كما يقول الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فأنت ترمى يا رسول الله، وترمون يا جند الله، ولكن الله هو الذى أوصل سهامكم إلى مرماها وأهدافها. المهم أن يتحرك الإنسان ولا يتجمد، لا يجلس كالرجل الذى جلس بجوار الحائط يدعو الله أن يرزقه معتمدًا على قول الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فنهره سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ لقصور فهمه وتواكله؛ لأن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإنما على الإنسان

أن يسعى فى أرض الله ملتمسًا رزق الله، كالطير تخرج من أعشاشها خماصًا ببطون خاوية، فتعود بعد سعيها بطانًا وقد شبعت بحمد الله.

وحمدتُ الله أن الأستاذ «يحيى حقى» - رحمه اللَّه - قد اختار الشيخ الشعراوى من بين من يهديهم أحد مؤلفاته، وكان يحملنى دائمًا إهداءاته من كتبه إلى من يريد إهداءهم، وكان كتابه الذى وقع عليه اختياره ليهديه إلى الشيخ هو «من فيض الكريم»، وهو عبارة عن مقالات جمعت تحت هذا العنوان الجميل. ونظرًا لضعف بصر يحيى حقى كان يملينى إهداءاته، ثم يوقع عليها. وكان إهداؤه إلى الشيخ الشعراوى قوله: «إلى الشيخ الشعراوى: نفع الله به الأمة».

وكان ذلك أسعد الهدايا والإهداءات، فقد أعطانى صاحب قنديل أم هاشم مفتاحًا فى ضوء قنديله؛ لأفتح به الطريق إلى الإمام الشعراوى. وفرغت نفسى تمامًا من أى ارتباطات فى هذا اليوم الموعود للذهاب إلى بيت الشيخ فى «الباب الأخضر» فى رحاب الإمام الحسين، ووصلت إلى هناك حوالى الساعة الحادية عشرة ضباح يوم ثلاثاء من مطالع أيام جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ. وفى مدخل الطريق إلى بيت الشيخ وجدت أحد المُكلَّفين بحراسته جالسًا، رغم أن الشيخ نفسه لا يرغب فى أى نوع من الحراسة،

حتى إنه حينما كان وزيرًا، وخرج من بيته ليؤدى الصلاة بالمسجد، تبعه حارسه الخاص، فأوقفه الشيخ الشعراوى ليقول له: لماذا تأتى خلفى؟! هل ستصلى معى؟! وكما يُروى فقد قال الحارس: جئت وراءك لحراستك. فقال له الشعراوى: وأنت من يحرسك يا بنى؟! إن الله يحرسنا جميعًا.

ويبدو أن وجود حراس على بيت الشيخ ما هو إلا نوع من السكرتارية التى تنظم مقابلاته، أو تحمل إليه الرسائل التى تصله، وإلا لو تركت الأمور هكذا، فإن وقت الشيخ لن يسعفه لمقابلة كل من يريدون لقاءه. وصبيحة أحد الأيام رأيت عددًا كبيرًا من الناس قد تجمعوا أمام بيت الشيخ فى الحسين يريدون مقابلته، فكان الحراس يسمحون لواحد واحد بالمثول بين يدى الشيخ ليبثه سؤاله أو مسألته، وإن كان وجود الحراسة فى حد ذاتها أمرًا ضروريا ـ كنوع من الأخذ بالأسباب ـ على رجل بأهمية الشيخ الشعراوى، الذى يحظى بنصيب وافر من الأعداء العلمانيين والشيوعيين الذين لم يكن غريبًا أن تخرج صحيفتهم لسان حال حزبهم ذات صباح لتقول فى أحد تحقيقاتها الصحفية: إن الشيخ الشعراوى يسيطر على التليفزيون، ويساعد بأحاديثه على تطرف الشباب. وفى جرأة تُحسَد عليها الصحيفة الحمراء طلبت من وزير الإعلام التقليل من الوقت المخصص للبرامج الدينية فى الإذاعة

والتليفزيون؛ بحجة أن المساحة المتاحة لهذه النوعية من البرامج تشجع على التطرف! ذلك فى الوقت الذى يشكو فيه الكثيرون من قلة تلك البرامج، وأن نقصها يتيح الفرصة للفكر المتطرف أن يسود. ولم يكن غريبًا أيضًا أن يكتب أحد كبار الكتاب الصحفيين المشهور بنفاقه وحرق البخور لذوى السلطة والسلطان، فيقول فى أحد كتبه على الشيخ الشعراوى دون أن يجرؤ على تسميته: إنه أحد رجال الدين، والذى أصبحت له شعبية كبيرة وصار مثل زعيم شعبى، ورغم أنه معتدل ـ كما يقول ـ فإنه ساهم بأحاديثه، سواء عن قصد أوغير قصد فى شحن الجماهير والمساعدة على التوتر الذى ساد البلاد فى أواخر عهد السادات، وانتهى بالمأساة الدامية.

ولم يكن غريبًا أيضًا ولا مستغربًا أن إسرائيل ـ ممثلة فى حكومة مناحم بيجين ـ قد طلبت من مصر ـ ممثلة فى حكومة السادات ـ أن توقف أحاديث الشعراوى؛ لأنه يتناول اليهود فيها بصورة لا تساعد على تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل. بل إن وزير التعليم الإسرائيلى فى حكومة بيجين طلب حذف الآيات القرآنية التى تندد باليهود كمعتدين غضب الله عليهم ولعنهم كقتلة لأنبيائه ومحرفين لكتابه.

فلا غرو أن تكون على الشعراوى حراسة؛ فحياة الرجل

مستهدفة من كل أعداء الإسلام.

ولما سألنى الحارس عما أريد، أخبرته أن معى رسالة إلى الشيخ الشعراوى من الأستاذ يحيى حقى.

فسألنى عمن يكون الأستاذ حقى. ولم أتعجب كثيرًا، فعادة ما يكون مثل هؤلاء الحراس من عديمى الثقافة، بل بالكاد ممن يفكون الخط، وغالبًا ما يكونون من قوات الأمن المركزى، لذلك فإن بطشهم حين يؤمرون يكون شديدًا. وحين يُستغضبون يكون بطشهم أشد، والدليل واضح فى أحداث الأمن المركزى الشهيرة. ولأن الشىء بالشىء يُذكَر فقد شاهدت عند الشيخ الشعراوى فى أحد لقاءاتى به بعضًا من ضباط الشرطة الذين جاءوا إليه حامدين شاكرين الله على ما كرهوه يوم نقلهم من مواقعهم القيادية فى قوات الأمن المركزى قبل أن تقوم قيامتهم المدمرة، وذهبوا يومها إلى الشيخ الشعراوى غاضبين من نقلهم من أماكن قريبة إلى أخرى ظنوها بعيدة، فقام الشيخ بتهدئتهم بالآية الكريمة ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، حتى وقعت تلك الأحداث وهم بعيدون عنها فى مواقعهم الجديدة، فحمدوا الله؛ لأنهم لو كانوا فى مواقعهم الأولى لنالهم العقاب الذى لم يكن أحد يعرف أبعاده أو بدايته أو منتهاه، لذا

عادوا للقاء الشيخ الشعراوى يشكرونه على ما ذكرهم به من كتاب الله يوم جاءوا إليه مغضبين فيما ظنوه نقمة، فإذا بالأحداث ووقائعها تثبت لهم أنها نعمة.

وما أجمل الرضا بقضاء الله وقدره كما يقول الشيخ الشعراوى، فإن من يرضى بقضاء الله وقدره يرفع الله عنه قضاءه، ومن لم يرضَ ظل القضاء عليه لا يُرفَع حتى يرضى.

وذكرت للحارس أن يحيى حقى أديب كاتب يؤلف قصصًا.

فسألنى عن الرسالة التى أريد تسليمها للشيخ، فقلت له: إنها عبارة عن كتاب.

فطلب منى حارس آخر ـ يبدو أنه قائد قوة الحراسة ـ أن أعطيه الكتاب، وأنتظر حتى يأتى ويسمح لى الشيخ بمقابلته، فبدا على وجهى خيبة الأمل، فأخرجت الكتاب من الحقيبة بيد واهنة ضعيفة، وأعطيته للحارس الذى كان رجلاً طيبًا، فقال لصاحبه: دعه يأتى معى.

ومضيت معه وأنا أكاد أطير من الفرح، فها أنا ذا قاب قوسين أو أدنى من لقاء الشيخ الإمام، ولا أكاد أصدق نفسى أننى خرجت من عنق الزجاجة.

وفى الطريق إلى شقته أعاد إلىَّ الحارس الكتاب؛ لأسلمه للشيخ الشعراوى بنفسى. ووصلنا إلى الباب، فطرقه الحارس، وترقبته، وفتح لنا مَنْ فتح ليقول لى الحارس بعد حديثه معه إن علينا أن ننتظر قليلاً؛ لأن الشيخ يتحدث فى التليفون. حتى إذا انتهى رأينا الشيخ مقبلاً علينا بنفسه، فسلمه الحارس بضعة خطابات من أصحاب المسألة.

وقال الحارس للشيخ مشيرًا إلىَّ: إن الأستاذ يريد أن يسلمك رسالة.

فسلمته كتاب يحيى حقى «من فيض الكريم» ملفوفًا بورق مسطر مشبوكًا بدبوس إبرة، فقال لى: تفضل.

وسألنى ممن تكون الرسالة، فأخبرته أنه كتاب هدية من الأستاذ يحيى حقى، فسألنى نفس سؤال حارسه: ومن يكون يحيى حقى؟

فقلت له: إنه أديب ناقد قصاص.

فسألنى: وما علاقتك به؟

فقلت: إنه أستاذ وصديق.

فسألنى بصيغة الجمع: كيف أحوالكم؟

فقلت: الحمد لله.

وراح الشيخ يردد: الحمد لله.. لك الحمد يا رب.

وأجَّلَ قليلاً النظر فى كتاب يحيى حقى، حتى ينتهى من فض الخطابات المرسلة إليه؛ فلعل بها شيئًا يستحق العجلة أو النجدة، وبين كل رسالة يفتحها وأخرى كان يحمد الله ويصلى على النبى ﷺ. ورغم رهبة الموقف وجلاله وأنا أجلس بحضرة هذا الرجل المهيب لأول مرة، فإننى لاحظت أن حارسًا آخر بعد أن مضى الأول الذى أوصلنى، لا يزال واقفًا بالباب ينتظر تعليمات الشيخ، ولاحظت غضبه بعد أن انتهى من قراءة الرسائل التى بين يديه وسلمها لهذا الحارس وهو يقول له فى ضيق بدا عليه: «كلهم عايزين معونات، حوِّلهم للشئون الاجتماعية، أنا حوَّلت كل فلوسى للشئون الاجتماعية، يعملوا عنهم بحث ويدُّوهم المعونة اللى يستحقوها».

فالشعراوى يغضب ويحزن كلما وصلت إليه رسائل يطلب فيها أصحابها منه المعونات المادية، وكان يتمنى لو سألوه أسئلة دينية أو استفسروا منه عن قضية من قضايا الإسلام، ولكنهم يسألون المعونات. وما أكثر ما تأتيه المسألة من أرباب النصب والاستغفال. ويقول الشيخ: إن الصادق من أصحاب الحاجة

والمسألة يجد حاجته تُقضَى فى وقتها، فيلبيها لساعتها؛ لأنها تكون عنده. أما أصحاب النوايا الخبيثة، فإن الله يعطى الشيخ الفطنة لصدهم وكشفهم.

وقال الشيخ كم من واحد أتاه، فأمات أمه وأباه أكثر من مرة ليطلب نفقات الجنازة، فيطلب الشيخ من أحد أعوانه أن يذهب معه للتكفل بنفقات الجنازة المزعومة، وعندما يشعر أن أمره قد انكشف، فإنه يخفى خزيه بأن تسابق قدماه الريح ما إن يخرج من رحاب منزل الشيخ.

فالشيخ الشعراوى لا يبلع الطعم أبدًا. وهكذا فالمؤمن كيِّس فَطِن.. يرى بنور الله، وهكذا الشيخ الشعراوى الذى عندما انتهى من رسائله التى أغضبته، اتجه نحوى يسألنى عن حالى.

فقلت له: الحمد لله الذى أتاح لى هذه الفرصة للقائك الذى أنتظره منذ زمن طويل.

وراح الشيخ يكشف عن كتاب يحيى حقى الذى أهداه إليه، وما إن قرأ العنوان «من فيض الكريم» حتى قال: ما شاء الله.. اللهم صلِّ على النبى. وأخذ يتصفح عناوين الكتاب، مثل:

ـ لماذا أنا سعيد؟ لأنى ولدت مسلمًا.

ـ فى مولد الرسول.

ـ فى سماء المدينة... الخ.

وكلما قرأ الشيخ أو صافحت عيناه عنوانًا اهتز فرحًا وهو يقول:

ما شاء الله. اللهم صلِّ على النبى.

وبعد أن انتهى اقترحت عليه قائلاً فى صيغة تساؤل: هل تود فضيلتكم الاتصال بالأستاذ يحيى حقى؟

فطلب رقم تليفونه، فأمليته عليه، وسجله فى نوتة صغيرة يحتفظ بها فى جيبه، وهممت أن أعيد على مسامعه الرقم مرة ثانية ليطلب يحيى حقى، فإذا به قد حفظه وطلبه دون حاجة إلى نظر فى نوتة أو إملاء منى. وهنا تذكرت قول الله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فعلى قدر التقوى يكون قدر العلم من الله للمتقين؛ لأن علم الله ونور نور الله لا يُهدَى لعاصٍ، فالعصيان يطفئ نور القلب، ويعمى البصيرة، ويبلد ملكات الفهم والحفظ والاستيعاب.

والشيخ الشعراوى من المتقين، بل من الواصلين المتصلين. انظر إليه وهو يتحدث عن أحداث ومواقف وقعت فى غزوة

الأحزاب، فإذا بها تتمثل له كما وقعت على حقيقتها، بل إن بعض شهودها يأتونه ليصححوا له بعض الوقائع التى ذكرها، لا يهم المكذبون، فهم لا شك مترقبون متحفزون، ولكن المهم أن الشيخ صادق مع نفسه. ولعالم الملكوت مع الخالق أسرار لا يدركها إلا من آتاه الله علمًا، وفتح له خزائن ملكوته. وتلك أمور غيبية لا تخضع لقوانين البشر. وفى قصة «موسى» و«الخضر» أنصع برهان وأبلغ دليل، فموسى يرى بقوانين الدنيا الواقعة، أما الخضر فقد كان يرى بقوانين الله المستقبلية مما يصعب فهمه حتى على كليم اللَّه موسى أحد الرسل أولى العزم، ولكن الله قد أعطى أحد عباده الصالحين المتقين من لدنه علمًا.

وما أحسب الشيخ الشعراوى إلا واحدًا من أولئك الذين اصطفاهم الله بعلمه، فهو يقول خواطره حول الآية الواحدة بل الكلمة الواحدة من كلام الله موضحًا موقعها النحوى وصلتها بما قبلها وما بعدها، ويربط بينها وبين ما شابهها أو ما يتصل بها فى كل آيات القرآن الكريم، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح، متحدثًا فى العلم والفلسفة والشعر والتاريخ، وكل فنون الثقافة والمعرفة بفهم عالٍ واستيعاب واعٍ، ومعرفة بكتاب الله وسنته، لا يؤتاها إلا من أحبه الله.

وحينما أردت أن يكتب فضيلة الشيخ مقدمة لكتابى «رمضان

الذى لا نعرفه»، اعتذر، وقبلت اعتذاره راضيًا؛ لأن ذلك سوف يفتح عليه أبوابًا لا تنتهى، ولكن ما إن صافحت عيناه الإهداء: «إلى رسول الإنسانية» حتى نبهنى بسرعة إلى الخطأ الذى وقعت فيه قائلاً: إنه ليس رسول الإنسانية؛ فالإنسانية لم ترسله، ولكنه رسول الله ـ تعالى ـ إلى الإنسانية. وكان تصحيحًا ذكيا وواعيًا.

وعندما دق جرس التليفون على الجانب الآخر، وسأل: هل هذا منزل الأستاذ يحيى حقى؟ فلما أجابه، قال: أنا محمد الشعراوى، وصلتنى رسالتك الكريمة من رسولك الكريم، وأسأل الله كما سعدت بالإسلام أن يسعد بك الإسلام.

ويبدو أن يحيى حقى طلب أن يتحدث إلىَّ، فأعطانى الشيخ الشعراوى التليفون، فقال لى يحيى حقى: أشكرك جدا يا إبراهيم على أنك أتحت لى هذه الفرصة للتحدث إلى الشيخ الشعراوى.

فقلت له بامتنان: بل أنا الذى أشكرك جدا؛ لأنك الذى أتحت لى هذه الفرصة للقاء الشيخ الشعراوى.

وأخذ الشيخ الشعراوى التليفون ليقول ليحيى حقى: أدعو الله أن أستوعب هديتك وأن أمثلها للمسلمين لينتفعوا بها.

وقام الشيخ ليُهدِيَنى مصحفًا شريفًا طبعة الأزهر الشريف، فلما طلبت منه أن يكتب لى إهداء، قال لى: إن المصحف نفسه

هدية وهدى وإهداء، لا يُكتب عليه شيء بعد المكتوب فيه من الله تعالى.

* * *

والله ـ سبحانه ـ قد جعل من الشيخ الشعراوى هدية للتذكير بكتاب الله، وقد اصطفاه الله واختاره ليقوم بمهمة وراثة الأنبياء فى دعوتهم، ولو كان الشيخ الشعراوى مخيراً فى اختيار طريقه فى الحياة لاختار حياة الريف وفلاحة الأرض التى كان يحبها ويهواها، ولكن نظرة من الأب حازمة، وعلقة ساخنة من سيدنا شيخ الكُتاب، كانتا من الأسباب المسببة والمقدرة لكى يتجه الشيخ فى طريقه الذى لا طريق سواه؛ ليصبح إمام الدعاة فى عصره. والقصة كما يرويها الشيخ فى حديث الذكريات مع صديقه المؤرخ الإسلامى د. حسين مؤنس:

«كان من العادة أن نقرأ اللوح مُصحَّحًا قبل حفظه. والتصحيح يتم بمساعدة المصحح أو العريف مساعد سيدنا الشيخ فى الكُتاب. واللوح هو ما يجب على الطفل حفظه من آيات القرآن الكريم، ثم نعاود تسميع ما حفظناه للشيخ.

والذى حدث أننا لم نصحح ـ فى إحدى المرات ـ ما سوف نحفظه، ثم علم الشيخ بهذه الواقعة. وفى اليوم التالى طلب منى

أن أتلو عليه ما حفظت. وكنت قد حفظت الآية كما أثبتها فى اللوح بما فيها من الخطأ هكذا ﴿حم عسق﴾ ولم أقرأها مثل نطقها سماعًا. وبسبب ﴿عسق﴾ عرف الشيخ أننى لم أصحح قراءة القرآن؛ لأن قراءاته تختلف عن الشكل المكتوب به. انظر إلى قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿أ.ل.م﴾، وانظر إليها فى سورة ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فهى تختلف فى السورة الأولى عنها فى الثانية، رغم أن مكونات ﴿ألم﴾ فى كل منهما واحدة. وبسبب الخطأ الواضح فى القراءة، حملنى الشيخ إلى أعلى، وألقى بى إلى الأرض، ثم عاود الكرة مرات ومرات، وأنا أصرخ وأستغيث. وليس هناك منقذ ولا مغيث، إلا إرهاقه وتعبه هو نفسه.

عرفت فيما بعد أنه لهذا السبب نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ مسموعًا ولم ينزل مكتوبًا.. وهذا إعجاز القرآن، وإعجاز رسول الله بعد أن سمعه، وهو الأمى، من جبريل عليه السلام ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

ويقول الشيخ عن نفسه: «الطفل فى هذه المرحلة ليست له إرادة، ولا يبدى رغبة معينة، وليس له إدراك يمكنه من تحديد مستقبله، ولك أن تتخيل أننى شخصيا كنت أريد أن أكون فلاحًا، فلقد تعلقت بالحقل والعمل فيه. استهوتنى الزراعة، ولم

يستهونى وقتئذٍ الأزهر.

ولكن الذى حدث أننى بعد أن حفظت القرآن قال والدى رحمة الله عليه:

يا محمد، قدمت لك طلبًا للالتحاق بمعهد الزقازيق الدينى، وغدًا سوف يكشفون عليك طبيا.

وراعنى الأمر فأنا أريد الزراعة؛ لأننى متعلق بها، وهو يريدنى أن أكون طالب علم، فماذا أفعل؟!

مكرت.. وفعلت ما يفعله الأطفال فى مثل هذه الظروف. وضعت التراب فى عينى لكى تتورم ويطردونى، وحاولت أن أضع فيها «شطة» من التى فى الحقل، ولكننى تراجعت.

ولم تفلح المسألة، وعندما ذهبت إلى اللجنة، اكتشفت أنهم يقبلون المكفوفين. وهكذا ضاعت أول فرصة للهروب من النجاح الذى لمسته فيما بعد.

كان لابد لى من أن ألجأ إلى طريقة أخرى للخلاص من الدراسة فى الأزهر. كان يمكننى إذا أنا جلست أمام الممتحن أن أنكر حفظى للقرآن، وأخطئ عامدًا فى قراءته. وفعلاً لم أقرأ القرآن كما يجب، بل تناسيت بعض الكلمات.

والعجيب هو اكتشاف الممتحن اللعبة، لاحظ سلامة النطق عندى لمخارج الألفاظ والحروف، وهو ما يفعله كل حافظ لكتاب الله.. واستدعى والدى، وكان خارج اللجنة ينتظرنى ليعود بى إلى القرية، فقال له: الولد ابنك غير حافظ للقرآن.

قال والدى فى ذهول: كيف؟!

ثم نظر إلىَّ نظرة كافية لأن تسحق أى رغبة أخرى غير أن أتلو القرآن. وفعلاً أسمعت الممتحن ما طلبه منى، فضحك وقال: لقد عرفت من البداية، وحتى لو لم تكن حافظًا لأنجحتك فى الامتحان».

وهكذا كانت إرادة الله مع الشيخ الشعراوى، تنقله من نجاح فى امتحان إلى نجاح فى امتحان آخر، وكل حياته سلسلة من النجاحات فى امتحانات مختلفة. والامتحان الذى يخوضه الشيخ اليوم هو مع كارهيه الذين لا يألون جهدًا فى مهاجمته، ومحاولة تشويه صورته وهدمه، ولكن ذلك لن يفيد فى شىء، فأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض، ومع خواطره وأفكاره نعيش معه فى رحاب الكعبة، وفى رحاب القرآن الكريم.

* * *